الهجرة في الأدب العربي المعاصر لعمر الشارني (2 من 3)

«محسن توفيق» الحكيم نرجسي ومثالي.. و«مصطفى سعيد» الطيب صالح يقيم استعلاءه على خضوعه ويتقدم الى بوابة الواقع «عصفور من الشرق» تجربة عن وعي الاصطدام والصدمة.. و«ذاكرة الجسد» عن ذاكرة متوحشة تستند على مجابهة الوعي لذاته

سعيد بوخليط*

■ على ضوء ما سبق، يحدد الأستاذ الشارني طبيعة المفكر الذي يتوخاه، فهم لا يخرج عن المقدمات النظرية التي وضعها الباحث لعمله، ثم قناعاته الذاتية وكذا الحمولة الايديولوجية التي استند عليها من خلال توجيه نقد بل وفضح واقع عربي يعيش في مستنقع التاريخ، بمؤسسات ينخرها الموت طولا وعرضا. وانسجاما حتى مع النصوص الأدبية والنماذج التي جاء بها الأستاذ الشارني للحديث عن الهجرة. انه بكل بساطة: المثقف الكوني التقدمي الملتزم بقضايا وطنه وشعبه: «ان المفكر هو دائما مسؤول أمام شعبه وقياسا الى وطنه. وما يحدث لهذا الشعب من خير أوشر، لأنه الوحيد الذي بامكانه ان يحتضن بنظرة خاطفة زمانه وكذا زمان الآخرين، ثم ثقافته وثقافة الآخرين».

تتغير المفاهيم اليوم بسرعة أنفاسنا، العالم يتقلص في كل لحظة. الأجناس المعرفية تذوب بعضها في البعض الآخر، الحدود تنهار. كيف يمكن اذن اقامة منظومة فكرية حداثية «جامعة»؟ قادرة على التماهي مع هذه السياقات الجديدة. الأمر بسيط: أن نتكلم لغة العصر. فرضيات لا تأخذ كامل ممكناتها وأقصى احتمالاتها الا بتحطيم أصنام الدوغما وأصول العقائدية العمياء. التي لا تؤدي الا لمزيد من الارتكاس والتراجع.

نحن ذات تاريخية، والتاريخ يفترض الاحتراس واليقظة وأخذ زمام المبادرة بالخصوص. وبالتالي، فان كل عطالة أو جمود أو استكانة تقود الى التلاشي. وفي أحسن الأحوال الى الأوهام وهي كثيرة في ثقافتنا العربية.

يؤكد الأستاذ الشارني، بأن النصوص الروائية التي وظفها في عمله هذا تمثل مرحلة متقدمة وعميقة، فيما يخص قضية ادراك علاقة الذات بذاتها وكذا الآخر. التطور الذي حصل داخل وعي بعض الأدباء العرب، هو ما سعى الى التقاطه والوقوف عليه. الا أنه من الصعب الاجابة أو معرفة التأثير الذي يمكن أن يحدثه عمق هذه النصوص على الواقع العربي.

لكن لماذا الأدب بالضبط وجنس الرواية بالخصوص؟ يقول الأستاذ الشارني: «الأدب هو أجمل تعبير عن هذه الحرية والرواية زهرته. بقدر ما يكون المسرح حبيس ديكور ومشهد ووحدة المكان والزمان. وبقدر ما تكون القصيدة نشيد عندليب في الغسق. وبقدر ما يكون الرسم تثبيتا متخلفا ومخادعا للحظة شاردة وغير تامة أبدا. فان الرواية تصنع وتفكك عالما يمكن الروح من أن تعيش بكل هناء، وأن يشاركها ويخلصها كذلك من آلامها وأحزانها. انه في الآن ذاته فضاء للتأمل والسعادة، وكذا التعلم والتمتع. فضاء للصحبة أو العزلة. انه النظري الذي تحول الى التطبيقي بعد أن خلصه من خبائثه وقصاصاته. يأخذه ويتسامى به الى درجة عالية من الشفافية والنقاء. الفن الروائي هو هذا الفن الذي يرتكز على أن يقارب في الحياة المشاهد المألوفة أكثر والوقائع الأكثر اعتيادا، ولكنه يعمق فيها الخصيصات النوعية الى حد أن يجعل منها لوحة رائعة».

الكتابة الروائية حسب الأستاذ الشارني تجمع وتوحد بين القصيدة والرسم والمسرح ثم الموسيقى، كل ذلك في حركة واحدة. وبالتالي، يتم الرهان عليها هنا من أجل ايصال الرسالة الحضارية والتاريخية التي يتوخاها الباحث.

روايات الهجرة التي يحللها في مؤلفه هذا. تضيف الى الخصائص الاستتيقية للرواية، مجموعة من المعطيات النظرية الأخرى، تعكس الأطروحة المركزية التي قام عليها الفكر والثقافة العربيان، أي حدود العلاقة بين الأنا والآخر ومن خلالها علاقة العرب بذواتهم.

اشكال الهجرة الى اوروبا

لقد أخذت الهجرة الى أوروبا أشكالا اقتصادية وثقافية وسياسية. واذا ارتبطت الأولى بحاجة أوروبا الى يد عاملة في لحظة تاريخية ما من أجل تشغيل دواليب اقتصادها. فان الثانية والثالثة تبقيان ذات أهمية قصوى ليس فقط ارتباطا بطبيعة الوعي الذي أحدثته ولكن خاصة من خلال عينة الذوات التي كانت موضوعا لهذه الهجرة.

أكثر الذوات احساسا بالحياة، هي التي توجهت الى أوروبا لأنها أصطدمت بخيبة أمل في هذا الواقع العربي. وبالتالي وجدت في أوروبا فضاء رحبا وواسعا من أجل بلورة أفكارها بالخصوص.

أوروبا بمؤسساتها الثقافية وجامعاتها الراقية، ومعاهد ومراكز البحث... ثم المناخ الملائم الذي تخلقه أجواء اللبيرالية والحرية... كل ذلك، جعل منها ملجأ حقيقيا لكثير من المثقفين العرب، الذين اختنقوا بالأجواء السائدة داخل مجتمعاتهم. وتجب الاشارة، الى أن كثيرا من هؤلاء المثقفين تحولوا الى أسماء دولية بفعل ظروف الاشتغال والبحث التي وفرتها لهم أوروبا.

تبقى الهجرة اذن ظاهرة سوسيو- تاريخية، تحكمها مجموعة من الحيثيات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. لا تقتصر في حقيقة الأمر على المجتمعات العربية بل تشمل كل المجتمعات الانسانية، مما يعطيها بعدا انسانيا. الاختلاف فقط يكمن في نسبية المعطيات التي تحكم الظاهرة وتختلف من مجتمع الى آخر. اضافة الى الموقف والبعد المفهومي ان صح التعبير الذي يمكن أن تأخذه الهجرة وكذا مستويات الموقف وردود الفعل الذاتية من قبل الشخص المهاجر.

لا شك أن الأستاذ الشارني اختار نماذجه الروائية: الحكيم الطيب صالح أحلام مستغانمي وهي تتباعد زمانيا. وربما كل نموذج يجسد حقيقة زمانية بكل تطلعاتها وأحلامها واحباطاتها.

توفيق الحكيم، نموذج للمثقف العربي الذي هاجر الى باريس في بداية هذا القرن من أجل العلم والمعرفة. وبالتالي سنقف في هذه الحكاية على نوع من الصراع الفكري والايديولوجي بين الشرق والغرب، أي بداية تشكل ملامح «صراع» حضارتين مختلفتين من ناحية الأسس والغايات والقيم والمفاهيم.

هذه المرحلة أعطاها الأستاذ الشارني تسمية «الوعي النرجيسي» حيث جسد «الحكيم» هذا الاحساس المفرط والمرضي بالذات في مواجهتها للآخر الأوروبي. لأنه: «ظل لصيق ذاته، مكتفيا بالحكم على حياة يرفض معرفتها أو فهمها». فهي «ذات مكبوحة ملتفتة الى ما سلف. ذات تبقى سجينة ذاتها وأوهامها وهلوساتها. ثم ترفض أي شكل من المواجهة مع الحاضر».

مصطفى سعيد ومرحلة تاريخية

في حين مصطفى سعيد مع «موسم الهجرة الى الشمال» يمثل مرحلة تاريخية تعود الى سنوات السبعينات، وهجرة أستاذ سوداني قصد التدريس في الجامعة البريطانية. وهو على العكس من محسن عند توفيق الحكيم، فان البطل هنا: «يقيم استعلاءه على خضوعه، ويتقدم الى بوابة الواقع، أي بوابة التاريخ».

بينما تدخل «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي، ضمن نموذج آخر سعى من خلاله الأستاذ الشارني، فحص واختبار مفهوم الهجرة السياسية مع لجوء أحد المقاومين الجزائريين القدماء الى باريس. نوع من المنفى الاختياري، احتجاجا على واقع قد لا يتحمل حتى ذاته. ليستبدل هذا العمل تاريخنا الميت بمفهوم آخر يؤسس: «لذاكرة متوحشة وثائرة، تأخذ كل أهميتها التراجيدية من خلال مجابهة الوعي لذاته. العنصر الجديد في هذا الشأن، هو أن الأمر لا يتعلق بتاريخ عبء ولكن تاريخ –قوة. قوة حية لا تقهر، تسكنا وتوجهنا وتضغط بثقل على أفكارنا وأفعالنا، لم يتم وضعها داخل خزانات الزمان. هي تاريخ تراجيدي، لأنها لازالت رهان حاضر يرتجف ويهتز حياة وعنفا».

كل واحدة من هذه المسارات تمثل لحظة وعي مختلفة ومتميزة داخل الوعي العربي هناك:

1ـ النرجيسية.

2ـ الثورة.

3ـ النقد الذاتي.

اذا تأملنا التمرحل، سنلاحظ بأن الوعي العربي يتطور وينمو تصاعديا داخل هذه النماذج الابداعية. فالنرجسية لا يمكنها في جميع الأحوال الا التعبير عن حالة مرضية باثولوجية. تظهر عجز الذات عن التفاعل بشكل موضوعي مع المحيط والأشياء. تمركز جنوني حول الذات، يحتكم الى موقف طفولي وساذج.

أما ثورة مصطفى سعيد الانطولوجية، فانها تشكل بداية أسس وعي نقدي. أي ملامسة الذات في نسبيتها وجدلياتها وتوتراتها، سواء عبر تاريخها أو علاقتها بالعالم ومكوناته.

انه تطور حضاري راق جدا، يعكس مستوى نضج كبير عند ذات شجاعة وجريئة. ما دام، أن الموقف يفترض في حقيقة الأمر مواجهة حقيقية وحساسة تمس الاختيارات الكبرى للذات والتي تتوزع بين احساسين نفسيين يتأرجحان بين النجاح أو الاخفاق. ولاشك أن النتيجة الثانية لا تكون دائما مضمونة النتائج.

لذلك، اذا دل النقد الذاتي عن شيء فانما يدل على قدرة الذات بفاعلية لمواجهة العالم، وأن تعيد بشكل دائم ومستمر صياغة ممكناتها، وبأن جوهرها منفتح باستمرار لا يمكنه الارتهان الى احتمال بعينه. انها تحس بالحياة، وبالتالي فهي ذات تاريخية وسوية من الناحية النفسية.... أشياء ظلت تفتقدها الذات العربية.

السياق العام للكتاب وأطروحته التاوية وكذا الظاهرة، يفكران في مدى قدرتنا على القيام برؤية جذرية بخصوص قضايانا السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية. والتخلص من هذه النرجسية الفارغة التي شكلت مأساة العرب ولاتستند على أي منطق تاريخي أو مبررات سيكولوجية.

لقد ظلوا عند حدود التغني بماض «مجيد» يمدحونه في كل لحظة وآن. شاهد الماضي هو الحاضر، والحاضر لا يمكننا موقعته الا بتملك المستقبل. فالعلاقة متداخلة ومترابطة بشكل كلي، بحيث يصعب تفكيك خيوطها.

الوقوف عند الماضي وامتداحه بل استشرافه عاطفيا ولغويا ان صح هذا التعبير، يفلت منا حتى هذا الماضي نفسه، وهو في أبسط تعريف ليس ماضينا فقط بل ارث تقتسمه الانسانية جمعاء.

مثلما أن الحضارة الفرعونية ملك لكل انسان أينما وجد حتى وان كانت جنسيتها مصرية. فان المنطق ذاته ينطبق على الارث الفكري اليوناني أو النظام السياسي الروماني وحضارة بلاد الرافدين. ابن رشد يتقن كل اللغات، والمتنبي يزرع الحياة في جميع الأنفس الحالمة، مثلما أن سقراط أستاذ للكل....

يجب أخذ الأشياء بحس ووعي تاريخيين، حتى نتجاوز هذا التمركز المرضي حول الذات، وكذا مجموع العقد السيكولوجية التي ترتبت عن ذلك وبالتالي حاصرت بشكل واع أو لاواع الذات العربية.

فـ: le moi aussi عليها القيام بمجموعة من الثورات، وعلى واجهات كثيرة ومتعددة حتى تتحول الى «أنا» مسؤولة بنضج وحرة، قادرة على مواجهة التحديات في زمان يتغير بسرعة قياسية.

اختيار الأستاذ الشارني لنصوصه. كان ذكيا وموجها، يستند على خلفية سياسية ومعرفية انسانية بالدرجة الأولى. تلاحق تطور ونمو الوعي العربي من النرجسية الى الثورة والنقد الذاتي. يقول محددا الخاصية الفكرية والنظرية للأعمال المنتقاة للحديث عن الذات المحاصرة: «هناك نفس جديد وغير معروف في الأدب العربي: ادراك النقد الذاتي، ليس كذنب ذاتي فردي يسلب الأنا حتميا. ولكن كانفصال للذات باعتبارها تمزق أو تقطع لأنا متأهبة، حيث تتبادلان الاتهامات فيما بينها. لكن كذلك يقر أحدهما الآخر كليا في هذا التعارض: الواحدة تسكن الأخرى وتتنكر لذاتها. الأخرى تسكن ذاتها وتهرب من الآخر. يمكننا أن نقول في الواقع، بأن رواية مستغانمي تمثل نمطا جديدا في الأدب العربي، حيث ينزاح الوعي عن مركزه، ويتخلى عن نرجسيته الطفولية، ويتجاوز تمزقه التراجيدي الميت لكي يقبل ويتحمل الآخرية بثقة ونضج. تظهر الهجرة كما يجب أن تكون، أي كحيز للابتعاد والتوسط. ما دام أن وظيفتها بالضبط تكمن في تباعد الذات عن ذاتها. انها ليست بمرآة تحيلها الى ذاتها كما هو الحال مع الحكيم، ولا بصحراء تجذبها وتذهب بها الى تحققها الكلي، كما هو الحال مع الطيب صالح. بل هي على العكس من ذلك، مجال للسكينة والصفاء تكتسبها الذات من خلال وصولها الى سن النضج أي العقل».

لاشك أن هذه الأعمال وبهذا العمق النظري والمفهومي، وكذا مستوى التغير الكيفي في رؤية العالم، تمثل مسارا جديدا في تراكم انتاجات الأدب العربي المعاصر. مما يفترض كذلك مقاربة نقدية جديدة، من أجل تمثل أفق هذا الوعي الذي يتجاوز بشكل جذري بنيات واقع اقتصادي وسياسي وثقافي متخلف ومتأخر تاريخيا. هناك مسألتان أساسيتان بهذا الصدد:

1ـ ان الوعي الاقتصادي العربي عليه استثمار هذا التطور من أجل بلورة وعي نقدي متقدم على مستوى البنيات الاقتصادية والاجتماعية. مما يعيد طرح معادلة كون البنيات المادية وان كانت تلعب دورا أساسيا في تأسيس الوعي، الا أن العلاقة ليست حتمية أو ميكانيكية بل هي جدلية ونسبية كذلك. وقد تكون البنيات السوسيو ـ اقتصادية متأخرة لكنها تحقق عطاءات أدبية وفنية راقية جدا. والأمثلة كثيرة في هذا الصدد يكفينا الاستشهاد بروسيا القرن. وكذا أدب أمريكا اللاتنية.

2ـ المسألة الثانية، تحيل على الدور الكبير للهجرة في زعزعة اليقينيات الجامدة لمجموعة بشرية ما. ذلك أن العامل الخارجي وتسلل عنصر الآخر الى منظومة ثقافية ثانية، ومن خلال عنصر المغايرة والاختلاف. يؤدي الى اعادة النظر في مجموعة من الثوابت والبديهيات . وبالتأكيد، فان المثقفين الليبراليين هم أول من دعا الى ذلك في تاريخنا العربي.

مع هذه التجارب الروائية، تتحمل الذات مسؤولية اختياراتها، لتعيش مصيرها بكل حرية. تخرج من شرنقة التصورات الميتافيزيقية المزوجة بأبعاد أسطورية عن الذات والقدر والمصير والاختيار والجبر....

التخلص من ذلك، يكمن في موضعة الذات داخل التاريخ، ونقل وعيها الزائف القائم على مجموعة من المحددات السيكولوجية والعصابية المرضية، الى وعي ناضج ومبدع يخلق مسافة موضوعية وعقلانية بين الذات والآخر والعالم. لكي يحصل الوعي العربي على حريته ويتجاوز المناحي والروافد الدينية واللاهوتية التي تحاصره وتعمل على تسييجه، ثم يدخل في علاقة واقعية ومباشرة مع التاريخ. يصنع البشر مصائرهم، مسؤولون عن اختياراتهم وعليهم اقتحام الأشياء بكل جرأة وشجاعة. فالاحساس بالضعف والهزيمة يتأتى من غياب الذات على مسرح التاريخ.

الحصار

يفسر الأستاذ الشارني مفهومه للحصار بقول مضمونه ان الذات «المحاصرة» تعني أن كل مبدع من المبدعين الثلاثة محاصر نفسيا وتاريخيا بل ووجوديا من خلال وضعية تعمل على كبحه وايقاف اندفاعه وكذا انطلاقته. العوائق هي: 1ـ النرجسية 2ـ القدر والمصير 3ـ الذاكرة.

فالحكيم أو الطيب صالح أو أحلام مستغانمي، ومن خلال الصورة التي يجسدها كل واحد من هؤلاء:

1ـ صورة الطائر في قفصه 2ـ صورة بطل حبيس وسجين مصير مرفوض، 3ـ ثم صورة «المونشو» الواقع تحت سيطرة العزلة والذاكرة.

صورة أو صور في بعدها المجازي تعكس كليا وضع العالم العربي المحاصر في ماضيه وحاضره وكذا مستقبله. ويشمل كل المظاهر الممكنة للحياة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية.

كيف السبيل اذن للخروج من هذه الوضعية؟الجواب على هذا السؤال في الحقيقة لا يتأتى لفرد واحد كالشارني أو أي مثقف تقدمي آخر. بل هو خيار جماعي ومشروع تاريخي مرتبط بمصير أمة وكتلة من البشر، موجودة في بقعة جغرافية ما ويتحتم عليها الالتقاء بمجموعات انسانية أخرى، لأنها لا تعيش في جزيرة منعزلة. كما أن التاريخ يصنع آلياته ويديرها في غنى عنا وعلى الرغم من تطلعاتنا وطموحاتنا. لذلك يجب التوفر على سرعة البديهة وقوة الحدس وذكاء الحواس لفهم ألغازه.

بين التاريخ والجسد
توفيق الحكيم: عصفور من الشرق

تجسد هذه الرواية نموذجا شبه كاريكاتوري لتلك «النفس السعيدة» الغارقة في نرجسيتها والمتمحورة على ذاتها بشكل مرضي، لكي تجعل منها مركزا للعالم ومصدرا وحيدا لكل التصورات والاحتمالات الممكنة حوله.

لقد مثل «محسن» حقا هذا النزوع النرجسي، من خلال دفاعه المستميت على امتداد الرواية، على الأطروحة التاريخية المغلوطة التي تؤكد تفوق المشرق على الغرب، انطلاقا من كون المشرق منبعا لقيم روحية سامية. في حين أن الغرب مرتع لنزعات مادية الحادية ولا أخلاقية، ستؤدي به حتما الى الانحطاط.

ظل هذا التصور مغلفا الوعي العربي، بل ولا يزال يتمظهر بشكل أو بآخر في مجموعة من الكتابات، تؤكد بأننا الأقوى بقيمنا وعقيدتنا. في حين أن الحضارة الأوروبية بفلسفتها الفكرية الوضعية ، تقود الانسانية لا محالة الى الانهيار!!! لذلك ظل محسن ـ بطل عصفور الشرق ـ ومن ورائه توفيق الحكيم، يشعر بأنه عليه القيام بمهمة: «اعادة فتح سبل العالم الآخر أمام الأنفس الضائعة بـ«الحضارة المعاصرة». وحيث يرتبط بعزم وقوة: «بطريق السماء، مؤكدا بأنه قادر على تخطي كل العوائق. اذ يظهر بان كل تجربته في «مملكة الأرض» تشتغل كتجربة مضادة للكشف عن البطلان وبالتالي ضرورة الرجوع الى السماء».

تمثل رواية «عصفور من الشرق» نموذج الهجرة التي كانت غايتها الدراسة وكسب العلم. طالب يحمل بين حقائبه تمثلا نوستالجيا عن فضاءات وأمكنة الولادة. صور تشتغل سلبيا عن الذات الحاملة لها،مما يجعلها عاجزة وجوديا عن الاندماج الفعلي والحقيقي في المجتمع الجديد.

فشل محسن في «عصفور من الشرق» في ادراك الواقع الموضوعي للمؤسسات التي تشكل وتؤثث المحيط الجديد، تحول عنده الى كبح وعجز نفسيين. تم التعويض عنهما بالهروب الى الماضي أو ابداع وخلق صورة وهمية ومتوهمة عن هذا الواقع الجديد. وزائفة في تصورها المطلق لماض «رائع» «ومثالي». الشيء الذي يعكس عدم قدرة محسن ـ ومن خلاله الوعي العربي المعاصر ـ عن امتلاك الحاضر وبالتالي الدخول الى التاريخ من بابه الواسع.

لقد انطلقت الرواية اذن من اعتقاد أساسي، مضمونه تفوق وتميز الشرق العربي عن الغرب الأوروبي. عناصر هذا الاعتقاد، تفعله مجموعة من العلاقات الضدية والعكسية. تنصهر في تقابلين كبيرين:

1ـ عنصر مكاني: حياة باريس الحديثة والعصرية.

2ـ عنصر زماني: زمان الماضي بالهاماته التي ترتكز على مجموعة من القيم الروحية.

ينتقد محسن بشكل حاد وعنيف مفهوم المكان / الحاضر باريس. من خلال بعض المظاهر وكذا التجليات الثقافية التي تتمظهر كذلك اقتصاديا: الفوارق بين الأغنياء والفقراء، اضمحلال القيم النبيلة، بداية الامبريالية الجديدة وكذا تبلور أشكال أخرى للعبودية. ثم المكانة التي اصبح يحتلها المال في عقول الناس وأحاسيسهم مقابل كل القيم الأخرى.... باختصار، فان محسن يعبر بشكل من الأشكال عن قيم الرفض البروليتارية انطلاقا من احتكاكه المباشر بالوضع الاجتماعي لأسرة عاملة استضافته أثناء هجرته لفرنسا.

وقد احتد شعوره هذا حين زيارته للمسرح والأوبرا، ووقوفه المباشر على الفارق الطبقي الصارخ بين الغني والفقير في المجتمع الباريسي، مؤكدا في كل لحظة على ضرورة العودة الى «مملكة السماء» وبالتالي تمثل قيم الشرق الروحية باعتبارها ملاذنا وخلاصنا الوحيد.

فضح الواقع الأوروبي والكشف عن مأساته وانحلاله وكذا ضياعه تقابله في الجهة الأخرى حتمية ضرورة العودة الى السماء لكي يتخلص الانسان من العبودية والخضوع. لذلك، سنلاحظ بأن كل مكونات الأنا في «عصفور من الشرق» تسير وفق استراتيجية هذه الثنائية القطبية. وهو ما سيأخذ منحى آخر، في اللحظة الثانية مع مصطفى سعيد في «موسم الهجرة الى الشمال» من خلال تغير موقف الأنا حيال العالم والآخر وكذا الأشياء المحيطة بها. يقول الأستاذ الشارني معقبا: «الاستعلاء والخضوع كثنائية قطبية، تظهر وتخفي بشكل تناوبي الاحساس بهذا الشعور أو ذاك. ولكنها تقسمه بانصاف بين الواقع والخيال. ثم بين «مملكة الأرض» و«مملكة السماء» 20.

يضع الأستاذ الشارني ترسيمة نظرية لرواية توفيق الحكيم، تقوم على ثلاثة حدود أساسية:

1ـ الانسان المتخيل.

2ـ صلة الانسان بالعالم.

3ـ الفلسفة التي تسند وتدعم هذه العلاقة.

تقوم اللحظة الأولى على سلسلة من التعارضات، تشتغل انطلاقا من تقابل جوهري بين الجسد والروح، الواقع والمتخيل، السعادة والحرمان: «كل واحد من هذه العناصر يتطور من خلال عنصر ساخر Ironique ، يحمل مضمونه إلى مستوى مبالغ فيه، بحيث أنه يختزل وضعية مأساوية – هزلية».

يرتدي محسن في هذه اللحظة جسدا بسيطا زاهدا متنسكا، خاصة وأنه قد تشبع منذ صغره بقيم: « التزهد، ولم يتخيل أبدا سعادة ، مثل سعادة السماء».

لقد اختزل هذا الجسد إلى مجرد كيان يتم تأمله من بعيد، ينظر دون أن يعطيه اسما أو هوية أو صوتا فهو مجرد جسد / شبح. روح منعزلة ملقاة إلى مملكة الأرض وفي عالم المادة، حيث: « تؤسس لتجربة الألم والحرمان كما لو أنها عوقبت بسبب مغادرتها السماء...، يعشق محسن ـ الفكر، جسدا/ صنما! هذا هو عنصر السخرية».

أما التعارض الثاني، فيتحدد انطلاقا من صلة الواقعي بالمتخيل. موقف وجودي يعكس إخفاق وخيبة «محسن» في تجربته العاطفية وفشله في الحياة: «تتغذى اللذة بالحرمان والألم، مثل النقيض من نقيضه...، ولكن هذا الإشباع في الحرمان وبالحرمان يدعمه تعويض نرجسي، والذي بالرغم من الفشل وفقدان الشيء، فإنه يبرز الذات ويسمو بها أمام أعين الآخر. هكذا يتحول الإستمتاع من الشيء المفتقد إلى صورته كما تنعكس في المحيط والإشعاع الذي يبرز منها. المأساوي– الهزلي، في أوجه ما دام من جهة تعترف الذات بفشلها وشقائها. وإن كانت تضل ذلك بآلية دفاعية. ومن جهة ثانية، تعوضه بالشفقة والعطف» في حين يشتغل التعارض الثالث على تقابلات السعادة والحزن، الفرح والمعاناة، الابتهاج والحرمان.

كل تلك الروافد ترسم بطريقة شبه تراجيدية الصورة / الأساس في «عصفور من الشرق»: «الطائر في قفصه».

لقد ظل محسن محتجزا في قفصه، بينما كانت باريس تشدو ألحان عصرها الذهبي. حيت سيأخذ القفص كل دلالته: «كمعبد للحقيقة والحرية، ومحراب للفكر ثم «مملكة للسماء». كما يتهيأ من أجل تلقي النقاشات النظرية الكبرى»

صورة الطائر في قفصه تحكم إذن، بل تختزل كل علاقات محسن بالعالم. وهي لا تقوم فقط على إحساس ذاتي باطني، ولكن تساهم في صياغتها كذلك الصور التي يبعثها الآخرون. إنه أكثر حرية واعتباطا من كل هؤلاء الذي يعيشون خارج هذا القفص وينعمون بالحرية الفعلية.

يستوعب محسن العالم باكمله انطلاقا من هذا الفضاء الصغير، معطيا بذلك لكلمة «شباك» كما توظفها اللغة العربية، كامل تعدديتها الدلالية، جاعلا من المسافة القائمة بين الواقعي واللاواقعي حيزا متميزا للحقيقة. يقول الأستاذ الشارني بهذا الخصوص: «يأخذ إذن القفص ثانية كل معناه، وهو يكشف عن خلفيته التاريخية الثقافية ومحيلا على هذه المجتمعات حيث زمان الحلم ينتشله من زمان «الواقع». وحيث أفضل ما يمكن أن يصنعه لحياته هو استعمالها بصبر».

لا شك أن تأملات محسن، تحمل نزعة روحية إشراقية تعمل على خلق إطار من الأحكام والتقييمات، تفاضل بين المقولتين الكبيرتين المشكلتين لمحور الرواية أي التقابل بين الشرق والغرب. وبالتالي بين منظومتين فكريتين: الشرق وما يجسده، حسب محسن من تعال و سمو روحي. ثم أوروبا وما تعكسه مؤسساتها السوسيو–ثقافية من قيم مادية تستند إلى فلسفة إلحادية.

المشرق في «عصفور من الشرق» هو الخلاص والملجأ وطوق النجاة. إنه الرحيل الأبدي للإنسانية إذا أرادت تجاوز «انهيارات» الغرب. لذا فإن محسن يستميت في الدفاع عن هذا المشرق والمشارقة، محولا هذا العشق الوهمي إلى نرجسية مرضية تبرر الأشياء والسلوكات بطريقة لاعقلانية.

لا تمثل «مملكة الأرض» شيئا بالنسبة لمحسن، إنها سقطة وورطة. «نهر من الدموع» والأحزان، وبالتالي من الأفضل أن لا نرتبط بها كثيرا، وأن نتسامى بخيالنا ومشاعرنا نحو «مملكة السماء» لأنها حقيقتنا ومصيرنا الأبدي. وبالتأكيد فإن القفص يؤسس بامتياز هذا المكان / الحصن الذي يشكل حاجزا بين الذات والموبقات التي تسود العالم الخارجي وبالتالي من الضروري الاعتزاز والافتخار بهذا المكان البديل: «سيتحول القفص الذهبي، ظرفيا إلى معبد للحقيقة والحرية».

يحلم محسن كثيرا، وبالتالي يفرض الواقع معطيا أسبقية للمتخيل. يباعد بين: «قوة الخيال المتيم بوجد ملتهب إلى جسد– شبح ثم الحرمان على أرض الواقع، بل وخلوه. يظهر هذا التباعد، التباين بين ذاتية زاخرة، وموضوعية مترنحة حيث تنجح بالكاد عناصرها في تغذية وتقوية الوهم»

تغييب محسن لمبدأ الواقع، ظل يشكل نواة مأساته، لأن ذلك يؤدي إلى تمزق وشرخ نفسيين خطيرين. لا يريد حتى ولو على مستوى السيكولوجي، الإقتناع بكون الشرق كحقيقة إنسانية وثقافية تسري عليه نفس القوانين البيولوجية والتاريخية التي تحكم باقي الجغرافيات الأخرى. حقيقته لا تختلف في أي شيء عن أية بقعة ثانية .

هنا كذلك يولدون ويموتون، يفرحون ويحزنون، يفكرون وينفعلون، يخطئون ويصيبون.... باختصار، المشرق ليس كيانا إلهيا يحلق في السماء بل هو أولا وأخيرا ماهية بشرية.

يمثل إذن توفيق الحكيم ومعه «محسن»، لحظة الوعي الأولى في علاقة الذات العربية بالغرب، ذلك أن الاصطدام والمجابهة المباغتة أديا إلى ارتجاج في التوازن النفسي لهذه الذات. وكان منطق رد الفعل لا عقليا بالتأكيد.

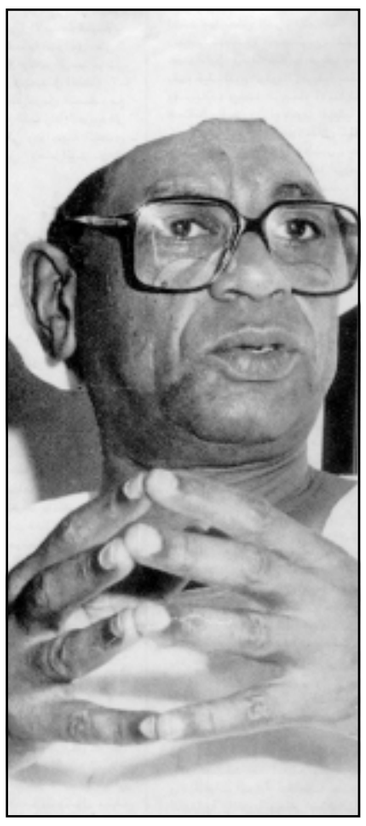

الطيب صالح

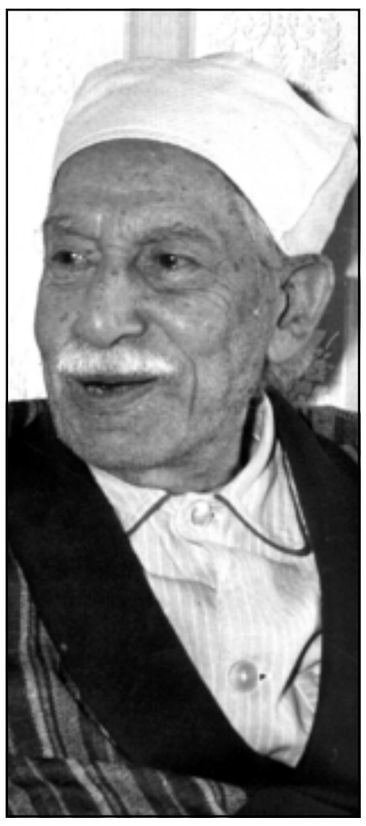

توفيق الحكيم

* كاتب وباحث عربي